أصوات العربية عند البيضاوي؛ مخارجَ وصفاتٍ في ضوء من علم الأصوات، قديمه وجديده

إيمان أركي* أ. د. محمد فلفل**

(الإيداع: 23 حزيران 2020 ، القبول: 13 آيلول 2020)

الملخّص:

تعدّ (المخارج والصفات) من القضايا المهمة الّتي شغلت حيزاً كبيراً عند المفسرين لكتاب الله تعالى وقد كان للقاضي البيضاويّ أثرٌ بالغٌ في هذا الجانب في تفسيره الموسوم بـ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

فجاء هذا البحث؛ لرصد ما ذهب إليه البيضاوي، ومن سبقه، ومن جاء بعده، ونهج منهجه من العلماء والمفسرين، في (المخارج والصفات) التي استشهد بها، وناقشها، وبيّن حجّيتها ليوضّح لنا المذهب الذي تابعه أو ما تفرّد به.

الكلمات المفتاحية: مخارج أصوات العربية، صفات أصوات العربية.

* طالبة دراسات عليا، قسم اللغة العربية، ماجستير، شعبة اللغويات.

**أستاذ، قسم اللغة العربية، جامعة حماة، سورية.

"Arabic Sounds at AL-Bedhawi, Emission and Qualities"

In Light of Phonology, Old and New

Iman Araki* **Prof. Mohammed Fulful****

(Received: 23 June 2020 , Accepted: 19 September 2020)

Abstract:

The emission of letters along with their qualities is considered one of the main concerns of Quran`s interpreters. Judge, ALBedhawi played a vital role in his interetation, Known as "The lights of Revelation and the secrets of interpretation" This is the reason why I dedicated my research to shed light on ALBedhawi`s issues, and the scholars who came before and after him, in this me the dology.

The emission of letters and their qualities were cited, discussed and proved to be right by ALBedhawi in order to clarify his doctrine or what he was really unique at.

Key word: Arabic Sounds, Emission, Qualities

*Postgraduated Student. MS. in Arabic Literature, Linguistics.

** Professor of Arabic language, Department of Hama University, Syria.

المقدمة:

ندرس في هذا البحث القضايا الصوتية من جهة طبيعة الصوت ومخرجه وخصائصه، والصفات النطقية والسمعية المصاحبة لأداء الصوت، فالصوت اللغوي هو: "الأثر السمعي الحاصل من احتكاك الهواء بنقطة ما من نقاط الجهاز الصوتي عندما يحدث في هذه النقطة انسداد كامل أو ناقص ليمنع الهواء الخارج من الجوف من حرية المرور"[1]

وهذا يوجهنا إلى أهميّة مخارج الأصوات وصفاتها عند البيضاوي[2] ونستدل على أهميتها بتعريف محمد المرعشي (ت1150هـ) للظواهر الصوتية بقوله: "تطبيق عملي للمخارج والصفات في الكلام الإنساني، فنتيجة المجاورة الحاصلة بين صوت وصوت آخر يكتسب الصوت صفات جديدة تحكمها قوانين صوتية... واصطلح على هذه التغيرات الجديدة نتيجة انتظام الأصوات في وحدة كلامية وانتظام هذه الوحدات في سلسلة كلامية بالظواهر الصوتية، كالإدغام والمد والإخفاء والتفخيم والترقيق وغيرها"[3].

والملاحظ عناية علماء القراءة والتجويد والمفسرين بالمخارج والصفات "فقد وُسِمَتْ مصنفاتها بأنها أكثر الكتب احتفاء بالمادة الصوتية؛ وذلك لابتغائها الدقة في تأدية كلمات القرآن الكريم قراءة وتدويناً إلى حد جعل بعض الباحثين يذهب إلى أنّ هذه العلوم انفردت بالدرس الصوتي وأغنته"[4]ولا سيما البيضاوي في كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

المبحث الأوّل: مخارج أصوات العربية عند البيضاوي:

المخرج لغة: جاء في الصّحاح "خرج خروجاً ومخرجاً. وقد يكون المخرج موضع الخروج، يقال: خرج مخرجاً حسناً وهذا مخرجه"[5]، وجاء في الوسيط: "المخرج موضع الخروج.... عند القراء والصرفيين: موضع خروج الحرف وظهوره وتميزه من غيره بوساطة الصوت. وفي علم الأصوات: نقطة في مجرى الهواء يلتقي عندها عضوان من أعضاء النطق التقاءً محكماً مع بعض الأصوات وغير محكم مع أصوات أخرى"[6].

والمَخْرج اصطلاحاً: "هو النقطة التي يتمّ عندها الاعتراض في مجرى الهواء، والتي يصدر الصوت فيها"[7]، وعند براجستراشر "هو الموضع من الفم ونواحيه الذي يَخرج أو يُخرج منه الحرف"[8]، وعند ماريو باي "كلمة المخرج تشير إلى النقطة المحددة في الجهاز النطقي التي يتم عندها تعديل وضعه. وهذا التعديل ربما يحدث عن طريق إغلاق مجرى الهواء في نقطة معينة ثم فتحه فجأة ليندفع الهواء... كما أنه ربما يحدث عن طريق تضييق المجرى محدثاً صوتاً مسموعاً... ويحدد اللسان في العادة مخرج الصوت وطبيعته. وربما تقوم الشفتان بهذه المهمة وحدهما أو مع الأسنان"[9]

---

[1] المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، لمحمد الأنطاكي، دار الشرق العربي – بيروت، ط3، 13/1

[2] البيضاويّ: عبد الله بن عمر بن محمد بن عليّ أبو الخير. قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي، كان إماماً علّامة، عارفاً بالفقه، والتفسير والعربية والمنطق؛ نظّاراً صالحاً متعبداً شافعياً. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1384هـ – 1965م، 50/2.

[3] جهد المُقل، لمحمد بن أبي بكر المرعشي (ت 1150هـ) دراسة، تح. د. سالم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن – عمان، ط2، 1429هـ 2008م، ص72

[4] علم الأصوات عند العرب، د. محمد حسان الطيان، ص21، والأصوات ووظائفها، لمحمد منصف القسطاطي، منشورات جامعة الفاتح، 1986م، ص88

[5] الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ) تح. أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين – بيروت، ط2، 1399هـ –1979م. باب (خرج)

[6] معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ –2004م، باب (خرج)

[7] المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق،1998م، ص50

[8] التطور النحوي للغة العربية، براجستراشر، أخرجه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1414هـ –1994م، ص 11

[9] أسس علم اللغة، لماريو باي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، عالم الكتاب – القاهرة، ط8، 1419هـ –1998م، ص78

قبل الخوض في مخارج الأصوات عند البيضاوي نقف عنده في كتابه "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" عند عدد الحروف وعلاقتها بأصوات فواتح السور:

عدد الحروف: "أوردَ في هذا الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصف أسامي حروف المعجم"[1] يشير بذلك إلى عدد أصوات المعجم والتي عددها عنده ثمانية وعشرون حرفاً، وذكر فيما قبل ذلك في الصفحة نفسها "واستعيرت الهمزة مكان الألف لتعذّر الابتداء بها"[2]

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أنّ البيضاوي في تفسيره لعدد أصوات فواتح السور قد خالف علماء العربية القدماء والمحدثين بعدد حروف العربية في حين جعلها علماء العربية تسعة وعشرين حرفاً، وفي هذا يقول الخليل (ت170هـ): "في العربية تسعة وعشرون حرفاً منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة"[3]، أما سيبويه(ت180هـ) فقال: "أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً"[4] ورتّبها بادئاً بالهمزة، ثم قال: "وهذه الحروف... التسعة والعشرون لا تُتبيَّن إلا بالمشافهة"[5]، وابن جني الذي تمثّل آراء الخليل وسيبويه "وكذلك فعل ابن جني إذ أعرض عن مادة الخليل الصوتية واستند إلى مادة سيبويه متخذاً من خط المدرسة النحوية اتجاهاً حدد به مسار مادته الصوتية في كتاب "سر صناعة الإعراب"... حيث كان حديثه عن المخارج والصفات المدخل الواسع للدراسة الصوتية عند علماء هذه المدرسة حتى إنّ بعض العلماء كان ينقل المادة الصوتية من سيبويه كما هي ولم يجرؤ على التغيير فيها"[6]، فبدأ بعدد حروف العربية وعددها تسعة وعشرون حرفاً، وقد خالف سيبويه في ترتيب بعض الأصوات، فجعل القاف قبل الكاف، والجيم والشين والياء قبل الصاد "اعلم أنّ أصول حروف المعجم عند الكافة تسعة وعشرون حرفاً، فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور من ترتيب حروف المعجم"[7]، وأراد بالألف هنا الهمزة، فقد وضّح ذلك فيما بعد بقوله: "اعلم أنّ الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة في الحقيقة"[8]، ولو نظرنا إلى تمام حسان من المحدثين لوجدنا اختلافاً بين مفهومي الصوت والحرف: "قلنا إنّ الصوت غير الحرف ومن المعروف أنّ حروف الهجاء الصحيحة في العربية الفصحى ثمانية وعشرون، وأنّ حروف العلة ثلاثة لكل منها كميتان إحداهما قصيرة أو حركة والثانية طويلة أو لين، فمجموع الحروف العربية الفصحى واحد وثلاثون حرفاً بناء على هذا الفهم. أما أصوات العربية الفصحى فأكثر من ذلك"[9]، وهنا يوافق تمام حسان البيضاوي بما أشار إليه سابقاً، فتمام حسّان فرّق بين أصوات المد وأصوات اللين حين أخرج ألف المد من حروف العربية، وقد نصّ البيضاوي في تفسيره بموضع آخر أنّ حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً بقوله: "في تسع وعشرين سورة بعددها"[10]، أي عدد حروف المعجم، وهذا دليل على اتّحاد مخرج الهمزة والألف عند المفسر، وربما أورد ذلك لأنّه عدّ الألف جزأين رسماً ولفظاً فالساكنة رسماً والمتحركة لفظاً ودليل ذلك قوله: "واستُعيرَت الهمزة مكان الألف لتعذر الابتداء بها"[11]

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تح: محمد صبحي حسن حلاق ومحمد أحمد الأطرش، 25/1

[2] المصدر السابق نفسه 25/1

[3] العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح. د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1424هـ -2003م، 41/1

[4] الكتاب لسيبويه، تح. د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ -1988م، 431/4

[5] المصدر السابق نفسه 4/ 432

[6] المدارس، الصوتية عند العرب النشأة والتطور، د. علاء جبر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ 2006م، ص 52، 53

[7] سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان ابن جني، تح. د. حسن هنداوي، دار القلم، ط2، 1413هـ -1993م، دمشق ص 41

[8] المصدر السابق نفسه ص41

[9] مناهج البحث في اللغة، د.تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م، ص 90

[10] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 25/1

[11] المصدر السابق نفسه 25/1

المخارج: لا نجد في أنوار التنزيل وأسرار التأويل فصلاً نظرياً يحدد فيه المؤلف الأصوات ومخارجها، وربما السبب في ذلك أنّ هدف المؤلف تفسير القرآن الكريم لا تعليم تلاوته، ولكن وجدنا ما يشير إلى عنايته بالمخارج في تفسيره لآيات القرآن الكريم تفسيراً يعمد المؤلف من خلاله إلى ذكر المخرج لإثبات صحة تفسيره لصوت معين أو لذكر أوجه القراءات لذلك الصوت، وحاولت أن أرتبها كما رتبها القدماء من أقصى الحلق إلى الشفتين مهتدية بخطا المؤلف في تفسير الحروف المقطعة في قوله تعالى (ألم).

1-أصوات أقصى الحلق: إنّ حكمةَ التركيب الصوتي في فواتح السور من أبرز الموضوعات التي بحثها البيضاوي ووقف على أسرارها بدءاً بالمخارج، وقد أشار البيضاوي إلى موضع المخارج في حديثه عن **الحروف المقطعة** في أوائل السور وتفسيره لسبب البدء بها "وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جُمع بينها إيماء إلى أنّ العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله"[1]

وهذا دليل على إلمام البيضاوي بالأصوات ومخارجها وتحديد واضح لمفهوم المخرج وإتقان الفرق بين المخارج ومواضعها ومدى أهميتها في دلالة التفسير القرآني، فهو بهذا يشير إلى المخارج الثلاثة التي يتفرع عنها ستة عشر مُخْرجاً مغفلاً بذلك مُخْرج الجوف فأول مُخْرج عنده الحلق "وهو مبدأ المخارج" وهذه إشارة واضحة إلى اعتماده مخرج الحلق للألف اللينة والهمزة، وإذا عدنا إلى آراء العلماء القدماء نجده يوافق من القدماء سيبويه باعتماده أقصى الحلق مخرجاً للهمزة والألف "فللحلق منها ثلاثة؛ فأقصاها مُخْرجاً الهمزة والهاء والألف"[2]، وكذلك ابن جني "فأولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء هكذا يقول سيبويه"[3]، ويخالف الخليل لعدم اعتماده على مخرج محقق لحروف العلة والهمزة بل سماها بالهاوية "وسمّيتْ جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق ولا من مدرج اللهاة، إنّما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف"[4]؛ أما مكي القيسي (ت437هـ) فتارة يجعلها هوائية وتارة ينسبها إلى الحلق، الحروف الحلقية: "وهي ستة العين والحاء والهاء والخاء والغين والهمزة فهذه الحروف تخرج من الحلق نَسَبَهُنّ إلى الموضع الذي يخرُجْنَ منه وهو الحلق"[5]، ثم قال في موضع آخر "ويقال الجوف جمع أجوف وهنّ ثلاثة الألف والواو والياء وهي حروف المد واللين المتقدمة الذكر سماهنّ الخليل بذلك لأنه نسبهنّ إلى آخر انقطاع مخرجهنّ وهو الجوف... الحروف الهوائية: وهنّ الجوّف"[6]

أما المحدثون فقد وافقوا المفسر باعتماد أقصى الحلق مخرجاً محققاً للهمزة. يقول إبراهيم أنيس: "أما مخرج الهمزة المحققة فهو من المزمار نفسه إذ عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجاري هو ما نعبر عنه بالهمزة... لا شكّ أنّ انحباس الهواء عند المزمار انحباساً تاماً ثم انفراج المزمار فجأة عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، ممّا يجعلنا نعدّ الهمزة أشدّ الأصوات، ومما جعل للهمزة أحكاماً مختلفة في كتب القراءات."[7]

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 28/1

[2] الكتاب لسيبويه، تح. د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ –1988م، 433/4

[3] سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان ابن جني، تح. د. حسن هنداوي، دار القلم، ط2، 1413هـ –1993م، دمشق، ص 46

[4] العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي 41/1

[5] الرعاية، لأبي محمد مكي القيسي، تح. د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن – عمان، ط3 ،1417هـ –1996م، ص139

[6] المصدر السابق نفسه ص142

[7] الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر ص77

2-أصوات حافة اللسان: ويتبين اهتمام البيضاوي بالمخارج عند إشارته إلى الفرق بين مخرجي الضاد والظاء، وهي مسألة شغلت القدماء من علماء اللغة "التبست الضاد بالظاء في القديم بجامع الرخاوة والجهر والاستعلاء أو التفخيم في كلٍّ، وإن بقيت الاستطالة سمة فارقة بينهما إذ إنها صفة لم تقرّ إلا للضاد وحدها، ومن ثم دأب المتقدمون على التحذير من الخلط بينهما"[1]

مخرج الضاد: ورد في تفسير قوله تعالى: "**وما هو على الغيب بضنين**" (التكوير:24)

قول البيضاوي في معنى (ضنين): "بمتّهم من الظّنّة وهي التّهمة، وقرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر بضنين بالضاد من الضنّ، وهو البخل، أي لا يبخل بالتبليغ والتعليم؛ والضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، والظاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا"[2]. جاء في اللسان في معنى ضنن "الإمساك والبخل... أي ما هو ببخيل كتوم لما أوحي إليه"[3]وجاء في معنى ظنن: "الظنين المتهم الذي تُظَنّ به التهمة ومصدره الظّنّة... معناه ما هو على ما ينبي عن الله من علم الغيب بمتهم"[4] بعد العودة إلى المعجم نلاحظ في تفسيره للآية يذكر القراءة بالضاد متمسكاً بتفسيره لها بمعنى التهمة لا البخل، وكلا التفسيرين يشير إلى براءة النبي من البخل بما يوحيه إليه الله من علم الغيب، أي ليس متهماً بالتقصير في أداء الرسالة، ولكن ربما أراد المؤلف أن يتأدب عندما ذكر النبي؛ فالتّهمة مصدر نسب إليه بينما البخل صفة ثابتة مع العلم أنها منفية. وإذا عدنا إلى تحديد المخرج عنده نجده يوردُ بهذه العبارة رأي سيبويه بمخرج الضاد "ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد"[5] وكذلك ابن جني الذي حذا حذو سيبويه "ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، إلا أنّك إن شئت تكلّفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر"[6] ولعل ذلك يعود لوضوح ذلك الوصف للمخرج، كما أنّه ذكر يمين أو يسار اللسان ولم يفرق بينهما، وهو بذلك لم يشر إلى صورة نطقية يعتمدها دون أن يبدي رأيه بل اكتفى بذكر أوجه القراءة، فمن كلام سيبويه يتضح أن القراءة الفضلى لحرف الضاد الضغط على الجانب الأيمن، ويمكن أن تتكلف من الجانب الأيسر، وبالمقارنة مع رأي إبراهيم أنيس وتمام حسان نجدهما يصفان مخرج الضاد ويجعلانها متكلفة من اليمين واليسار، ويؤيد إبراهيم أنيس رأيه بقرّاء مصر، ولعلّ البيضاوي في تفسيره هذا يرى أن الضاد تنطق من الجانبين مع تطور يجعلها تشابه إلى حد ما الظاء. ونستأنس الآن برأي إبراهيم أنيس:" فالضاد العربية القديمة كانت عصية النطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتى على بعض قبائل العربية في شبه الجزيرة العربية"[7] وهذا ما ذكره ابن يعيش بقوله: "والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فربما أخرجوها طاء، وذلك أنّهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا وربما راموا إخراجها من مخرجها، فلم يأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء"[8]، وهذا يفسر إبدال الضاد ظاء؛ فهي مرحلة من مراحل تطور الضاد العربية القديمة عصية النطق إلى ظاء، فيتضح من كلام البيضاوي أنّ الضاد صوت ينشأ من اتصال غير محكم بين حافتي اللسان، والأضراس الموازية لها، وبهذا يكون البيضاوي قد جمع بين ما قاله

---

[1] ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية، د. عبد اللطيف محمد الخطيب، عالم الكتب – القاهرة، ط1، 1422هـ -2001م، ص 20

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي 3/ 504

[3] لسان العرب، لابن منظور، القاهرة، دار المعارف، باب (ضنن)

[4] لسان العرب، باب (ظنن)

[5] الكتاب، لسيبويه 433/4

[6] سر صناعة الإعراب ص47

[7] الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس ص 49

[8] شرح المفصل، لابن يعيش (ت643هـ) 127/10، 128

القدماء والمحدثون عن مخرج الضاد، ونبّه على المخرج من حافتي اللسان مع الأضراس، وذلك لعدم الخلط بينها وبين الظاء كما في الضاد الحديثة، وهذه دلالة واضحة على وعي البيضاوي بمخرج الضاد وأثره في تفسير قوله تعالى "بضنين".

أ- مخرج اللام: ذكر البيضاوي في معرض تفسيره للحروف المقطعة في أوائل السور: "واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها"[1]

ولو عدنا إلى ما قاله القدماء عن مخرج اللام لم نجد من يوافق البيضاوي في المصطلح إلا ابن جني "ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنيّة مخرج اللام"[2]؛ أما الخليل ومكي فاستخدما مصطلح ذلق اللسان والذي قصداه منه هو الطرف حقيقة، يقول الخليل: "والراء واللام والنون ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان"[3]؛ أما سيبويه فقال: حافة اللسان وهي عبارة أوسع لتشمل طرفي اللسان وتصل إلى مخرج الضاد، والدليل على هذا ما أورده ابن يعيش في شرح المفصّل في شرح كلام سيبويه: "فاللام من حافة اللسان من آخرها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية"[4] والذي نفيده من ذلك أنّ البيضاوي لم يخرج عن عبارة سيبويه عندما نسب اللام إلى أصوات وسط المخارج، وهذا دليل واضح على وعيه بأنّ اللام من حافتي اللسان إلى طرفه ودليل على وضوح ذلك المخرج في ذهنه، أما على صعيد الفرق بين البيضاوي والمحدثين في تحديد مخرج اللام فقد وافق إبراهيم أنيس أما تمام حسان فقال لثوية "صوت لثوي جانبي مجهور يتم النطق به برفع طرف اللسان حتى يتصل باللثة ورفع الطبق حتى يتصل بالجدار الخلفي للحلق فيسدّ المجرى الأنفي وبإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية"[5].وهو بذلك يشير إلى العضو الذي يصطدم معه طرف اللسان لإصدار الصوت بينما قال كمال بشر: "أسنانية لثوية وهي التاء والدال والضاد والطاء واللام والنون"[6]. وهنا انحراف بالمخرج ربما يعود للتطور التاريخي والأداء الصوتي المعاصر للأصوات العربية، وبذلك يكون البيضاوي قد جمع بين ما ورد عند القدماء والمحدثين في تحديد المخرج، علماً أنّ البيضاوي لم يكن الغرض من حديثه تحديد المخرج بدقة بل تفسير بلاغة القرآن الكريم في ذكر الحروف المقطعة والحكمة من ذلك.

ب- مخرج التاء والطاء:

ويأتي حديثه عن المخارج مرتبطاً بظاهرة الإدغام. ففي معرض حديثه عن ظاهرة الإدغام في قوله تعالى: "**بيّت طائفة منهم غير ما تقول**" (النساء:81). قال البيضاوي: "وقرأ أبو عامر وحمزة بيّت طائفة بالإدغام لقربهما في المخرج"[7].

وهنا يشير إلى تقارب مخرجي التاء والطاء دون التصريح بمخرجيهما، وإذا عدنا إلى ما قاله القدماء عن مخرجي التاء والطاء وجدنا الخليل جعلهما من مخرج واحد وهي نطعية وأخذ عنه مكي وحدد النطع بسقف الغار الأعلى فقال: "أي سقفه"[8]، والنطع لغة: "ما ظهر من الغار الأعلى فيه آثار كالتحزيز يخفّف ويثقّل"[9]، وعند سيبويه وابن جني مخرجهما من بين طرف اللسان

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 28/1

[2] سر صناعة الإعراب ص47

[3] العين 42/1

[4] شرح المفصل للزمخشري 517/5

[5] مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان ص105

[6] علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000م، ص184

[7] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي 1/ 375

[8] الرعاية ص 140

[9] الصحاح، مادة (نطع)

وأصول الثنايا، يقول سيبويه: "ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء"[1] ،وهنا نجد انحراف اللسان عن النطع إلى الأمام قليلاً ليصبح لثوياً، فما نستنتجه مما تقدم أن نظرة أعلام اللغة القدماء لمخرجي التاء والطاء على أنهما من مخرج واحد بخلاف ما جاء به البيضاوي عندما علّل الإدغام لتقارب المخرج لا اتّحاده، أمّا إذا انتقلنا إلى المحدثين فيستوقفنا إبراهيم أنيس "ففي تكّون التاء لا يتحرك الوتران الصوتيان بل يتّخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا، فإذا انفصلا انفصالاً فجائيّاً سُمع ذلك الصوت الانفجاري، والطاء ...لا تفترق عن التاء في شيء غير أنّ الطاء أحد أصوات الإطباق فصوت الطاء ...يتكون كما تتكون التاء غير أن وضع اللسان مع الطاء يختلف عن وضعه مع التاء فاللسان مع الطاء يتخذ شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى"[2] فقد وافق سيبويه وابن جني، ووَضَعَ التاء والطاء من مخرجٍ واحدٍ يكون بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، ويقصد بها اللثة، أمّا تمام حسان وكمال بشر فوصفا المخرج بأنّه أسناني لثوي، ونرى انحراف المخرج للأسفل ليلامس الأسنان وهذا الانحراف يتبعه ضعف في الإطباق حين يميل اللسان إلى الانبساط. وإذا عدنا للبيضاوي عندما قال لقربهما في المخرج كأنه على بينة بأن المخرج ليس ثابتاً مع توالي الأجيال وتأثير اللهجات في اللسان العربي الفصيح، وخير ما نستدل به على ذلك قول محمد الأنطاكي في حديثه عن الأصوات الفرعية نتيجة التّحول فيها "الطاء التي كالتاء هي طاء ضعف إطباقها فصارت كالتاء إذ لا فرق بين هذين الصوتين إلا في صفتي الإطباق والانفتاح ومتظرفاتنا اليوم يقلْنَ "تبيب" بدلاً من "طبيب"[3]

3- الأصوات الشفوية:

مخرج الميم:

ذكر البيضاوي في معرض تفسيره للحروف المقطعة في أوائل السور: "والميم: من الشفة"[4]، وهذا ما اتفق عليه القدماء، كالخليل أبرز أعلام النحو: "والفاء والباء والميم شفوية لأن مبدأها من الشفة"[5]، وتبعه سيبويه وابن جني: "ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو"[6]، ونقل عنه مكي القيسي: "وهي ثلاثة الفاء والباء والميم سماهنّ الخليل بذلك...ومخرجهنّ من الشفتين فنسبهنّ إلى الشفة"[7]. كما اتفق عليه المحدثون، فإبراهيم أنيس يتحدث عن مصدر الصوت، وكيفية حدوثه، وطريق خروجه، وعوامل تقاطعه التي تحدد المخرج " الميم: ويتكون هذا الصوت بأن يمرّ الهواء بالحنجرة أولاً، فيتذبذب الوتران الصوتيان فإذا وصل في مجراه إلى الفم فيتخذ الهواء مجراه في التجويف الأنفي، محدثاً في مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع، وفي أثناء تسرب الهواء من التجويف الأنفي تنطبق الشفتان تمام الإطباق"[8]، وعبر تمام حسان عن انطباق الشفتين بالإقفال والأصوات الشفوية عنده الباء والميم والواو. "ويكون بتقريب المسافة بين الشفتين بضمهما أو إقفالهما في طريق الهواء الصادر عن الرئتين"[9]، ولكن البيضاوي عندما ذكر مخرج الميم لم يتحدث عن سبب التسمية ولا عن كيفية حدوث الصوت

---

[1] الكتاب، لسيبويه 433/4

[2] الأصوات اللغوية، لإبراهيم أنيس ص53

[3] المحيط، محمد الأنطاكي، ط3، دار الشرق العربي، بيروت 45/1

[4] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 28/1

[5] العين 42/1

[6] الكتاب، 433/4، سر صناعة الإعراب ص48

[7] الرعاية ص 143

[8] الأصوات اللغوية ص47

[9] مناهج البحث في اللغة ص84

في المخرج، وكان الغرض من ذلك تفسير سبب بدء السورة بالحروف المقطعة لا الحديث عن المخرج نظرياً، وهذا دليل على وعي البيضاوي بالجهاز الصوتي المنتج للأصوات وبيان أهمية تلاوة القرآن بإخراج الأصوات من مخرجها.

تعدّ مخارج الأصوات ضرورة لا غنى لنا عنها للتمييز بين الأصوات، ولكنّ علماء اللغة قديماً وحديثاً لاحظوا أنّ تحديد المخرج غير كاف للتمييز بين الأصوات فالمخرج الواحد يشترك فيه عدة أصوات؛ لهذا لجؤوا إلى التمييز بينها من جانب آخر وهو صفات الأصوات؛ لأن الأصوات متحدة المخرج تختلف بالصفات. فحين يتكون صوت من الأصوات في الجهاز الصوتي معتمداً على مخرج محدد نتيجة اتصال عضوين من أعضاء النطق يصاحبه حركات عضوية مختلفة تسهم في إعطاء الصوت مزيداً من السمات التي تميزها يطلق عليها الصفات.

المبحث الثاني: صفات أصوات العربية عند البيضاوي:

الصفة لغة: جاء في لسان العرب "وصف الشيء له وعليه وصفاً وصفةً: حلّاه. وقيل الوصف المصدر، والصفة الحلية"[1]

الصفة اصطلاحاً: "كيفية يوصف بها الحرف عند حلوله في مخرجه وتوجب مراعاتها تحسين النطق بالحرف. كالهمس والجهر والاستعلاء والاستفال إلى غير ذلك".[2]

فعندما يصدر الصوت من الجهاز الصوتي معتمداً على حركات عضوية يقوم بها المخرج وذلك نتيجة اصطدام عضوين من أعضاء النطق باتصال محكم بينهما أو غير محكم ليصدر الصوت متسماً بصفات تميزه من غيره وهذه السمات اصطلح علماء العربية على تسميتها بالصفات.

أنواع الصفات: قسّم علماء العربية قديماً وحديثاً صفات أصوات العربية إلى قسمين من حيث التمييز أو التحسين.

صفات مميزة: "سميت بهذا الاسم لأن من شأنها التمييز بين الأصوات المتشاركة في المخرج الواحد مثل: (ث، ذ، ظ) مخرجها واحد، والذي جعل جرسها مختلفاً في السمع اختلاف صفاتها المصاحبة لها في تكوّنها في مخرجها؛ فالثاء مهموس، والذال مجهور، وصفة الجهر ميزته عن الثاء"[3]

صفات محسّنة: "وهي مجموعة من الصفات التي لا ضد لها، ومعنى التحسين في هذه الصفات أنها تعطي الصوت جرسه الخاص به... فهي محسّنة للأصوات التي تتصف بها... والصفات المحسنة هي: القلقلة والصفير والغنة والانحراف والتكرير والتفشي والاستعلاء واللين. وكل صفة منها تكشف عن جانب من طريقة تكوّن الصوت في مخرجه وكيفية جريان النفس معه"[4]. إذا تتبعنا تفسير البيضاوي فإننا لا نجد فصلاً نظرياً يتحدث فيه المؤلف عن صفات الأصوات وأهميتها ودورها في التفسير القرآني وهذا لا يعني إهماله لها، فقد ورد ذكره لصفات الأصوات في معرض تفسيره للآيات من الجانب التطبيقي وقد صنّفتُ ما ورد عنده من صفات إلى متضادة وغير متضادة.

تناول البيضاوي الحديث عن صفات الأصوات من الجانب النظري:

صحيح أن البيضاوي لم يتناول الحديث عن الصفات من الجانب النظري، ولكنه ألمّ بها في تفسيره لفواتح السور، وهذا دليل على وعي المفسر بالصفات ونوعَيْها، وإن لم يفرّق بينهما، وأولها جاء في حديثه عن الحروف المقطعة في أوائل السور في قوله: "الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصف أسامي حروف المعجم إن لم يعدّ فيها الألف حرفاً برأسها في تسع وعشرين سورة بعددها... فذكر من المهموسة وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها "ستشحثك خصفه" نصفها: الحاء والهاء

---

[1] لسان العرب، لابن منظور، باب (وصف)

[2] أحكام قراءة القرآن الكريم، تأليف الشيخ محمود خليل الحصري (ت 1401هـ) ضبطه: محمد طلحة بلال منيار، المكتبة المكية، دار البشائر الإسلامية ص 80

[3] المدخل إلى علم أصوات العربية، د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان الأردن، ط1، 1425هـ -2004م، ص101

[4] المصدر السابق نفسه ص118، 177

والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورة نصفها يجمعه "لن يقطع أمر" ومن الشديدة الثمانية المجموعة في (أجدت طبقك) ومن البواقي الرخوة عشرة يجمعها (حمس على نصره) ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها ومن البواقي المنفتحة نصفها ومن القلقلة، وهي حروف تضطرب عند خروجها، ويجمعها (قد طبج) نصفها الأقل لقلتها ومن اللينتين الياء لأنها أقل ثقلاً، ومن المستعلية وهي: التي الصوت بها في الحنك الأعلى وهي سبعة: القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء نصفها الأقل ومن البواقي المنخفضة نصفها"[1].

بناء على ما ذكره البيضاوي يمكننا ترتيبها إلى:

صفات متضادة وهي:

1- الهمس وحروفه: (السين، التاء، الشين، الحاء، الثاء، الخاء، الصاد، الفاء، الهاء)

2- الجهر وحروفه: (اللام، النون، الياء، القاف، الطاء، العين، الهمزة، الميم، الراء)

3- الشدة وحروفها: (الهمزة، الجيم، الدال، التاء، الطاء، الباء، القاف، الكاف)

4- الرخاوة وحروفها: (الحاء، الميم، السين، العين، اللام، الألف، النون، الصاد، الراء، الهاء)

5- الإطباق وحروفه: (الصاد، الضاد، الطاء، الظاء)

6- الانفتاح وحروفه: (باقي الحروف)

7- الاستعلاء وحروفه: (القاف، الصاد، الطاء، الخاء، الغين، الضاد، الظاء)

8- الاستفال وحروفه: (باقي الحروف)

صفات لا ضد لها وهي:

1- القلقلة وحروفها: (القاف، الدال، الطاء، الباء، الجيم)

2- اللين وحروفه: (الياء، الواو)

والبيضاوي يذكر هذه الصفات بحروفها كاملة ما ذُكر منها في فواتح السور وما لم يُذكر؛ لأن إهمالها لحكمة من الله، وبيّن الغاية من ذلك وهي التحدّي والإعجاز "افتتحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن... وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز" لا سيما عندما ذكر اللينتين استخدم المثنى دليل على أنه يريد الياء والواو، ولكنه اكتفى بالياء، وعلل ذلك بأنها أقلّ ثقلاً.

تناول البيضاوي الحديث عن صفات الأصوات من الجانب التطبيقي:

1- الهمس:

الهمس لغة: "الصوت الخفي، وهمس الأقدام أخفى ما يكون من صوت القدم، قال تعالى: " فلا تسمع إلا همساً"[2]

الهمس اصطلاحاً: "الهمس من صفات الضعف... والمهموسة عشرة يجمعها قولك سكت فحثه شخص، والهمس الصوت الخفي فإذا جرى مع الحرف النفس لضعف الاعتماد عليه كان مهموساً"[3]

أصوات الهمس في أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

في معرض تفسيره لقوله تعالى: "**إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت**" (البقرة:248)

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 25/1

[2] الصحاح باب (همس)

[3] النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833هـ)، تح، علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 202/1

قال البيضاوي مفسراً لفظ التابوت: "الصندوق فَعْلُوت من التَّوب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفاعول لقلّة نحو سَلِسَ وقَلِقَ، ومن قرأه بالهاء فلعله أبدله منه كما أبدله من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة"[1]. نلاحظ ذكر صفة الهمس عند البيضاوي جاءت من خلال تصريف الكلمة والذي أجازه المفسر استبدال تاء الزيادة في وزن (فعلوت) هاء، وذلك لاجتماعهما بصفة واحدة وهي الهمس فذكر من الحروف الهامسة الهاء والتاء ولم يكن ذكره لصفة الهمس إلا تعليلاً لتعاقب صوتي الهاء والتاء في آخر كلمة (التابوت)؛ فهو ينفي أن يكون وزنها (فاعول)، ولو أجازه لما جاز عند من قرأه (تابوه) أن يستبدل لام الكلمة فيفسد المعنى، في حين قال العكبري (ت616هـ)، في وزنها (فاعول): "والتاء في التابوت أصل ووزنه فاعول، ولا يعرف له اشتقاق وفيه لغة أخرى التابوه بالهاء وقد قرئ به شاذاً فيجوز أن يكونا لغتين وأن تكون الهاء بدلاً من التاء، فإن قيل: لم لا يكون فعلوتاً من تاب يتوب، قيل المعنى لا يساعده"[2]، وعند العودة إلى المعجم باب (تبت) وجدنا معنى: "التابوت: الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما تشبيهاً بالصندوق الذي يُحْرَزُ فيه المتاع"[3]

أما ما ورد في باب (توب) فهو: "التابوت أصله تابُوَةٌ مثل تَرْقُوَة وهو فَعْلُوَةٌ فلما سكنت انقلبت هاء التأنيث تاء. قال القاسم بن معن[4]: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في التابوت، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء"[5] والملاحظ من قول القاسم أن الاختلاف في لفظ التاء أو الهاء عائد إلى لغة القبائل، والكلمة دخيلة على اللغة العربية "عبراني (تِبَه) وهو صندوق من الخشب"[6] ولو عدنا إلى ما قاله القدماء عن الهمس لوجدنا إجماعهم على أن الهمس في الحرف ضعف وأن التاء والهاء من أصوات الهمس، فالخليل يقول: "ولولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء"[7]، والهتُّ: "شبه العصر للصوت"[8]. قال الدكتور أحمد قدور: "ربما قصد من الهت والضغط انطباق لسان المزمار"[9]، وسيبويه يقول: "وأما المهموسة فالهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه"[10]. أما المحدثون فقد تناولوها من جانب آخر وهو عدم ذبذبة الوترين الصوتيين، فإبراهيم أنيس يقول: "فالصوت المهموس هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان"[11]، وتمام حسان يقول: "المهموس وهو ما لا تصحب نطقه هذه الذبذبة"[12]. وعند علماء التجويد: "الهمس من صفات الضعف... والمهموسة عشرة يجمعها قولك سكت فحثه شخص، والهمس الصوت الخفي فإذا جرى مع الحرف النفس لضعف الاعتماد عليه كان مهموساً"[13]. لكنّ البيضاوي لم يعن بمفهوم الهمس عنايته

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 210/1

[2] إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات، للإمام محب الدين أبي البقاء العكبري، مطبعة التقدم العلمية، 58/1، 59

[3] اللسان باب (تبت)

[4] القاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودي الهذلي الكوفي، أبو عبد الله قاضي الكوفة، من حفاظ الحديث، كان عالماً بالعربية والأخبار والأنساب والأدب، توفي 175هـ 791م. الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ط7، 1986م، 186/5

[5] الصحاح باب (توب)

[6] كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، للقس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني، عني بنشره وتصحيحه وتعليق حواشيه، الشيخ يوسف توما البستاني، ط2، 1932م، مكتبة العرب بمصر ص16

[7] العين 41/1

[8] لسان العرب، باب (هتت)

[9] أصالة علم الأصوات عند الخليل، الدكتور أحمد محمد قدور ص44

[10] الكتاب، لسيبويه 434/4، وانظر: سر صناعة الإعراب، لابن جني ص61

[11] الأصوات اللغوية، لإبراهيم أنيس ص21

[12] مناهج البحث في اللغة، لتمام حسان ص88، وانظر أيضاً: علم الأصوات، للدكتور كمال بشر ص174

[13] النشر في القراءات العشر 202/1.

بجذر الكلمة وغرضه من ذلك تعليل إبدال التاء هاء، وهذا لا يُسَوّغ إبدال صوت مهموس مكان صوت مهموس؛ ولكنه أشار إلى أن المقصود بالتابوت التوب وهو الرجوع ومفرده توبة والأصل في التاء مربوطة وهي تاء التأنيث وفق ما ذكره الجوهري، ولهذا جاز استبدالها بالهاء غير أنه لم يشر إلى جواز الوقف أو عدمه، فاستبدال التاء هاء كان ضرورة لتأكيد جذر كلمة التابوت وهو توب وليس تبت. وقد ذكر ابن منظور في باب (توب) أنّ: "التصريف الذي ذكره الجوهري في هذه اللفظة حتى ردّها إلى تابوت تصريف فاسد، قال: والصواب أن يذكر في فصل (تبت)؛ لأن تاءه أصلية ووزنه فاعول مثل: عاقول وحاطوم والوقف عليها بالتاء في أكثر"[1]

2- التفخيم:

التفخيم لغة: "التعظيم وفخّم الكلام أي عظّمه... والتفخيم في الحروف ضد الإمالة وألف التفخيم هي التي تجدها بين الألف والواو كقولك سلام عليكم وعلى هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة كل ذلك بالواو؛ لأن الألف مالت نحو الواو"[2] التفخيم اصطلاحاً: "من الفخامة وهي العظمة والكثرة فهي عبارة عن ربو الحرف وتسمينه، وهو والتغليظ واحد إلا أن المستعمل في الراء في ضد الترقيق هو التفخيم، وفي اللام التفخيم"[3] وعند المحدثين جاء التعريف أكثر دقة "أثر سمعي ينتج عن عوامل فسيولوجية متداخلة ندرك منها عملين مهمين أولهما: ارتفاع مؤخر اللسان تجاه أقصى الحنك فيحدث رنيناً مسموعاً، وثانيهما: رجوع اللسان إلى الخلف بصورة أسرع مما يحدث له أثناء النطق بالأصوات المرققة"[4] والجدير بالذكر أن الفرق "بين الإطباق والتفخيم أن الإطباق وصف عضوي للسان في شكله المقعّر المطبق على سقف الحنك، وأن التفخيم هو الأثر السمعي الناشئ عن هذا الإطباق"[5]. جاء ذكر التفخيم في تفسير البيضاوي بأكثر من موضع، وأول ما نقف عليه في حديثه عن لفظ الجلالة في قوله تعالى: "الله" (الفاتحة:1). قال البيضاوي: "وقيل أصله لاها بالسريانية فعرّب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام عليه. وتفخيم لامه إذا انفتح ما قبله أو انضمّ سُنَّة"[6].

فالبيضاوي يشير إلى السبب الذي فخمت اللام فيه وهو فتح أو ضم ما قبلها وهذا ما أجمع عليه علماء اللغة قديماً وحديثاً، والسبب في ذلك اتباع سنة النبي في التلاوة، ولم يبين الغرض من التفخيم. وعندما نعود لعلماء التجويد نجد مكياً يقول: "والتفخيم لازم اسم الله جلّ ذكره إذا كان قبله فتح أو ضم نحو: قال الله"[7]. وعند أبي عمرو: "واللام في اسم الله عزّ وجلّ مجمع على تفخيمهما إذا سبقت بفتح أو ضمّ، نحو: (قالَ اللهُ، رسُلُ اللهِ)، وترقق إذا تقدمها كسر، نحو: بسمِ اللهِ"[8]. وكذلك عند الداني: "فأمّا اللام من اسم الله عزّ وجل فالجميع مجمعون على ترقيقها مع الكسرة من أجلها، عارضة أو غير عارضة، نحو: بسمِ الله والحمدُ للهِ.... فإن وليها فتحة أو ضمّة أجمعوا على تغليظها من أجلهما، نحو: قالَ اللهُ ورسلُ اللهِ"[9] وقال

---

[1] لسان العرب باب (توب)

[2] لسان العرب باب (فخم)

[3] النشر في القراءات العشر 90/2

[4] علم الأصوات، د. كمال بشر ص394

[5] علم الأصوات، تأليف برتيل مالبرج، تعريب: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، 1985م ص117

[6] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي 11/1

[7] الرعاية، لمكي القيسي ص116

[8] أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي أبو عمرو بن العلاء، للدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1408هـ-1987م، ص116

[9] التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي ص160

البيضاوي في موضع آخر: "وقيل أصله لاهٍ مصدر لاهَ يليه ليهاً ولاهاً إذا احتجب وارتفع لأنّه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار ومرتفع على كلّ شيء وعمّا لا يليق به"[1] فقد أورد البيضاوي التفخيم، ولم يرد به حقيقة الأصوات المفخمة، بل جاء بأصل الكلمة، وذكرَ المعنى المراد من الجذر وهو الارتفاع والتعالي، وبهذا كان المراد من ذكر التفخيم في هذا السياق لبيان عظمة الله وتعاليه. أما في تفسيره لقوله تعالى: "**الّذين يأكلون الرّبوا**" (البقرة:275). فقال البيضاوي: "وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع"[2]. فإذا عدنا إلى ما قاله القدماء والمحدثون عن الأصوات المفخمة لم يكن في مجموعتها الواو، وليس فيها استعلاء اللسان، فحروف التفخيم هي: "حروف الإطباق المذكورة يُتفخّم اللفظ بها لانطباق الصوت بالريح من الحنك، ومثلها في التفخيم كثير من الكلام. الراء واللام والألف نحو: ربكم ورحيم والصلاة والطلاق في قراءة ورش"[3]، ولكن البيضاوي جمع بين صوتين صائتين في تفسير هذه الكلمة؛ ليشير إلى التفخيم في لفظ الألف، ولم تكن كتابتها بالواو إلا إشارة إلى إمالتها نحو الضم. يقول محمد الأنطاكي في حديثه عن ألف التفخيم: "هي صوت طليق يحدث من ارتفاع مؤخر اللسان نحو مؤخر الحنك ارتفاعاً يزيد على ارتفاعه مع الفتحة المفخمة التي تلي أصوات الاستعلاء... والألفات المفخمة الواردة في القرآن قليلة، وقد كتبت بالواو إشارة إلى إمالتها نحو الضم، مثل: الصلوة والزكوة والحيوة"[4] وأشار في الحاشية أن المقصود بلفظ ألف التفخيم هنا الإمالة "وتسمى الألف الممالة نحو الضم، وهذه التسمية أليق بها وأدق"[5] فالبيضاوي لم يذكر التفخيم الذي هو عكس الترقيق إنّما قصد إمالة الصوت للتفخيم، وبهذا يشير إلى تعظيم الأثر السلبي للرّبا في نفوس ملتهميها، فجاء لفظ التفخيم لوظيفة دلالية وهي طلب الزيادة غير المستحقّة على المال مع نهي الله عنه. وصرّح البيضاوي بأن المقصود من التفخيم الإمالة في موضع آخر من خلال تفسيره لقوله تعالى: "**فقال الضُّعفاؤا**" (إبراهيم:21). قال البيضاوي في معنى الضعفاء: "الأتباعُ، جمعُ ضعيفٍ يريدُ به ضعافَ الرأي. وإنما كُتِبَت بالواو على لفظ من يفخّم الألف قبل الهمزة فَيُمِيْلُها إلى الواو"[6]. كما ذكر لفظ التفخيم وأراد به تعليل سبب الزيادة ومنه تفسير قوله تعالى: "**مما خطيئاتهم**" (نوح:25). قال البيضاوي: "من أجل خطيئاتهم، وما مزيدة للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو مما خطاياهم"[7]. قال النحاس: "ما، زائدة للتوكيد، ولا يجوز عند البصريين غير ذلك"[8]، فالبيضاوي استخدم لفظ التفخيم ولم يرد به التفخيم، إنما أراد تفخيم الحال التي وصلوا إليها بسبب أخطائهم، وأكّد ذلك عندما استشهد بقراءة أبي عمرو "قرأ أبو عمرو (مما خطاياهم)، وحجته أنّ الخطايا أكثر من الخطيئات لأنّ جمع المؤنث بالتاء، في الأغلب من كلام العرب أن يكون للقليل"[9]

التفخيم عكس الترقيق: ففي قوله تعالى: "**الر**" (يونس:1). قال البيضاوي: "فخّمها – أي الراء–ابنُ كثير ونافع برواية قالون وحفص"[10]. الرّاء حرف مفخّم إذا فتح أو سبق بمفتوح ولم يخالف البيضاوي علماء اللغة في ذلك، ولكنّه تحدّث عن التّفخيم هنا وغرضه من ذلك ذكر أوجه القراءات. فالراء من الحروف التي تفخّم أو ترقق "واعلم أنّ الراء يتغير اللفظ بها من حيث

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 10/1

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي 230/1

[3] الرعاية، لمكي القيسي ص128

[4] المحيط، لمحمد الأنطاكي 43/1

[5] المصدر السابق نفسه، الحاشية 43/1

[6] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي 220/2

[7] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، 3/ 453

[8] إعراب القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت338هـ)، تح. د. زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، ط2، 1405هـ –1985م. 42/5

[9] حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1418هـ –1997م، ص726

[10] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2/ 88

أنّها ترقّ في حال وتغلّظ في حال، وذلك تابع لحركتها وسكونها... فإن كانت مضمومة أو مفتوحة فُخّمتْ"[1] وكذلك جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى: "**طه**" (طه:1) قال البيضاوي: "فخَّمها قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخَّم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه، وأمالها الباقون"[2]. فالطاء من حروف الإطباق، وذكر البيضاوي التفخيم في حديثه عن أوجه القراءات. نلاحظ أنّ البيضاوي لم يُعنَ بالتفخيم من الناحية الصوتية للصوت المفخّم فقط، بل تجاوز ذلك إلى دلالات معنوية مرتبطة بالنحو، أو الصرف إضافة إلى اهتمامه بالقراءات وبيان أوجه القراءة، وربط التفخيم بوظيفة نفسيّة، وقد تنوّع عنده مفهوم مصطلح التفخيم.

الصفات التي لا ضد لها:

1- الإطباق: الإطباق لغة: "أطبقوا على الشيء أجمعوا عليه، والحروف المطبقة أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء، والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مُطبِقاً له"[3]، وسمّيت حروف الإطباق مطبقة ومنطبقة، قال المهدوي (ت440هـ): "سمّيت منطبقة لأنّ اللسان ينطبق مع الحنك"[4]. وقال ابن أبي مريم (ت565هـ): "وسمّيت مطبقة لأنّك ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له؛ فيصير الصوت بذلك محصوراً فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحرف"[5]

في معرض تفسيره لقوله تعالى: "**اهدنا الصراط المستقيم**" (الفاتحة:6) قال البيضاوي: "والسراط من سرط الطعام إذا ابتلعه فكأنه يَسْرَطُ السابلة، ولذلك سمي لقَماً لأنه يلتقمهم. والصراط من قلب السين صاداً ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يُشمّ الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير برواية قنبل عنه ورويس عن يعقوب بالأصل، وحمزة بالإشمام[6]، والباقون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام[7]، وجمعه سُرُط ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث"[8]

وبالعودة للمعجم نجد الجوهري يقول في معنى الصراط:" الصِراطُ والسِراطُ والزِراطُ: الطريق"[9]

أما(السِّراط) بالسين فهي:" سَرط الطعام والشيء...ابتلعه، والسّراط: السبيل الواضح والصِّراط لغة في السراط والصاد أعلى لمكان المضارعة وإن كانت السين هي الأصل وقرأها يعقوب بالسين"[10]

فمن قرأه بالسين جاء به على الأصل، ومن قرأه بالصاد قلب السين صاداً لتجانس الطاء في الإطباق، والسين تشارك الصاد في الصفير والهمس، فلما شاركت الصاد في ذلك قربت منها، فكانت مقاربتها لها مجوزة قلبها إليها لتجانس الطاء في الإطباق. "والسين الأصل، والكتاب بالصاد، وإنّما كتبت بالصاد ليقرّبوها من الطاء؛ لأنّ الطاء لها تصعّد في الحنك، وهي مطبقة، والسين مهموسة، وهي من حروف الصفير، فثقل عليهم أن يعمل اللسان منخفضاً ومستعلياً في كلمة واحدة، فقلبوا السين إلى الصاد مؤاخية للطاء في الإطباق ومناسبة للسين في الصفير؛ ليعمل اللسان فيهما متصعّداً في الحنك عملاً واحداً"[11]

---

[1] الموضح في التجويد، لعبد الوهاب القرطبي (ت461هـ)، تح. د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 1421هـ -2000م، ص106

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2/ 382

[3] لسان العرب، باب (طبق)

[4] شرح الهداية، لأحمد بن عمار المهدوي (ت440هـ)، تح. د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1995م، 78/1.

[5] الموضّح في وجوه القراءات وعللها، لابن أبي مريم، تح. د. عمر حمدان الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، جدّة، ط1، 1993م، 173/1.

[6] الإشمام: روم الحرف الساكن بحركة خفيّة لا يُعتدُّ بها ولا تكسر وزناً. اللسان، باب: (شمم)

[7] الإمام: المصحف العثماني مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أمر بكتابته وجمعه وكانوا يسمونه "المصحف الإمام"، تاريخ القرآن الكريم وغرائب رسمه وحكمه، لمحمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط، ط1، مطبعة الفتح بجدة -الحجاز، 165هـ -1946م، ص3

[8] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 18/1

[9] الصحاح باب (صرط)

[10] الصحاح، باب (سرط)

[11] كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تح. د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر – القاهرة ص107

وقد وافق البيضاوي علماء القراءات بنسبة الصاد والطاء إلى أصوات الإطباق فالشكل الذي يتخذه اللسان عند الإطباق هو ارتفاع طرف اللسان وأقصاه ليتخذ اللسان شكلاً مقعراً، وأراد البيضاوي بقلب السين صاداً تأكيد الأصل لجذر الكلمة، وبيان السبب الّذي لأجله قُلبت لا ذكر الصّفة التي يشترك بها الصوتان، فجاء التفسير القرآني بالاعتماد على الصفات خدمة للمعنى، ويشير البيضاوي من خلال ذلك إلى أهمية صفات الأصوات في التفسير القرآني.

2- الغنّة:

الغنة لغة: "صوت من الخيشوم"[1]

الغنة اصطلاحاً: "صوت مستقرّ في جوهر النون ومثلها التنوين والميم، فيقال: النون حرف أغنّ، والميم حرف أغنّ، لأنّ في كل منهما غنّة تخرج من الخيشوم عند النطق فهي زيادة فيها كالإطباق الزائد في حروفه، والصفير الزائد في حروفه، فالغنة من علامات قوة الحرف"[2]

ففي تفسير قوله تعالى: "**أولئك على هدى منْ ربهم**" (البقرة:5)، قال البيضاوي: "ونكّر هدىً للتعظيم... وأكد تعظيمه بأن الله تعالى مانحه والموفق له، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة "[3]

الملاحظ أنّ البيضاوي ذكر الغنة ليؤكد تعظيم الله تعالى فالغنة من علامات قوة الحرف، وحرفا الغنة "هما النون والميم الساكنتان سميتا بذلك؛ لأنّ فيهما غنّة تخرج من الخياشم عند النطق بهما فهي زائدة فيهما كالإطباق الزائد في حروف الإطباق، وكالصفير الزائد في حروف الصفير، فالغنة من علامات قوة الحرف ومثلها التنوين"[4]. وهذا الإدغام ناتج عن تقارب المخارج، أما الغنة فناتجة عن إطالة الصوت، فالبيضاوي لم يبين رأيه بإطالة الصوت أو عدمه، والسبب الذي أطيل الصوت لأجله، يقول إبراهيم أنيس: "وليست الغنّة إلا إطالة لصوت النون، فالزمن الذي يستغرقه النطق بالغنة هو في معظم الأحيان أضعاف ما تحتاج إليه النون المظهرة"[5]، كما لم يبيّن الحكمة من ذلك فقد أورد القراءات فقط، ولكن عندما ذكر السبب الذي لأجله نكّرت (هدى) ربما يشير إلى أن الحكمة من الإطالة تعظيم الهادي، وفي إيراد وجهي القراءة يشير إلى جواز الغنة وعدمها.

نتائج البحث: بعد إتمام هذا البحث بعون الله تعالى تبين لي النتائج الآتية:

1-سخّر البيضاوي قضايا علم الأصوات النطقي من معرفة المخارج والصفات في وصف بعض الاختلافات الصوتية في قراءة القرآن الكريم، كما سخّر مبادئ علم الأصوات النطقي في الوقوف على أسرار التركيب الصوتي وفلسفته في فواتح السور (الحروف المقطعة).

2-لم تكن عناية البيضاوي بالمخارج والصفات إلا خدمة لتفسير آيات القرآن الكريم على الوجه الذي يميل إليه.

3-يوافق البيضاوي سيبويه وابن جني في كثير من الآراء المتعلقة بمخارج الأصوات.

4-ما تناوله البيضاوي في تفسيره للصوت اللغوي في فواتح السور يؤكد رسوخ المفهوم الصوتي في ذهنه، واستيعابه لقضايا الأصوات استيعاباً شمل المخارج كلها نتج عنه تذوق علمي للصوت اللغوي في حالتيه الفردية والتركيبية.

---

[1] الصحاح باب (غنن)

[2] أحكام قراءة القرآن ص110، 111

[3] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 38/1

[4] الرعاية، لمكي القيسي ص131

[5] الأصوات اللغوية، لإبراهيم أنيس ص 62

5-إنّ البيضاوي في تفسيره كان يُعنى بالأصوات؛ مخارج وصفات بالقدر الذي يحتاجه، وهو في كلامه ينقل عمن سبقه من أهل العلم كالخليل وسيبويه وعن أهل العلم بالقراءة.

6-علم التفسير علم موسوعي يفيد من غير علم، ومنها علم القراءات وعلم الأصوات، وإفادة البيضاوي من علم الأصوات محدودة، وكان أغلبها في الحديث عن المخارج والصفات للحروف المقطعة التي ذُكرت في أوائل السور.

فهرس المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي أبو عمرو بن العلاء، للدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1408هـ -1987م.

3- أحكام قراءة القرآن الكريم، للشيخ محمود خليل الحصري (ت 1401هـ)، ضبطه وعلق عليه: محمد طلحة بلال منيار، المكتبة المكيّة، دار البشائر الإسلامية.

4- أسس علم اللغة، لماريو باي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتاب – القاهرة، ط8، 1419هـ -1998م.

5- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، د. أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط2، 1424هـ - 2003م.

6- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر.

7- والأصوات ووظائفها، لمحمد منصف القسطاطي، منشورات جامعة الفاتح، 1986م.

8- إعراب القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت338هـ)، تح: د. زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، ط2، 1405هـ -1985م.

9- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت -لبنان، ط7، 1986م.

10-إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات، للإمام محب الدين أبي البقاء العكبري، مطبعة التقدم العلمية.

11-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تح: محمد صبحي حسن حلاق ومحمد أحمد الأطرش، دمشق، دار الرشيد، بيروت، مؤسسة الإيمان، ط1، 1421هـ -2000م.

12-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: محمد أبو الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1384هـ -1965م.

13-تاريخ القرآن الكريم وغرائب رسمه وحكمه، تأليف: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط، مطبعة الفتح بجدة -الحجاز، ط1، 165هـ -1946م.

14-التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تح: د. غانم قدوري الحمد، دار عمار-عمان، ط1، 1421هـ -2000م.

15-التطور النحوي للغة العربية، براجستراشر، أخرجه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1414هـ - 1994م.

16-تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، للقس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني، عني بنشره الشيخ يوسف توما البستاني، مكتبة العرب بمصر، ط2، 1932م.

17-جهد المُقل، لمحمد بن أبي بكر المرعشي الملقب ساجقلي زاده (ت 1150هـ)، تح. د. سالم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن عمان، ط2، 1429هـ 2008م.

18- حجة القراءات، للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1418هـ -1997م.
19- الرعاية، لأبي محمد مكي القيسي، تح: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن – عمان، ط3، 1417هـ -1996م.
20- السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تح. د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر – القاهرة.
21- سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان ابن جني، تح: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1413هـ -1993م.
22- شرح المفصل للزمخشري، تأليف موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت643هـ)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، بيروت – لبنان، ط1، 1422هـ -2001م.
23- شرح الهداية، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت440هـ)، تح. د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1995م.
24- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ) تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين – بيروت، ط2، 1399هـ -1979م.
25- ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية، د. عبد اللطيف محمد الخطيب، عالم الكتب – القاهرة، ط1، 1422هـ – 2001م.
26- علم الأصوات، تأليف برتيل مالبرج، تعريب: د. عبد الصبور شاهين، القاهرة، مكتبة الشباب.
27- علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، د. بسام بركة، مركز النماء القومي، بيروت 1988م.
28- علم الأصوات عند العرب، د. محمد حسان الطيان.
29- علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000م.
30- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح. د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1424هـ -2003م.
31- الكتاب لسيبويه، تح. د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1408هـ -1988م.
32- لسان العرب، لابن منظور، القاهرة، دار المعارف.
33- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1421هـ -2001م.
34- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، لمحمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط3.
35- المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور، د. علاء جبر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ ، 2006م.
36- المدخل إلى علم أصوات العربية، د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان الأردن، ط1، 1425هـ -2004م.
37- المدخل إلى فقه اللغة، د. أحمد محمد قدور، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية 1430هـ -2009م.
38- المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، د. عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000م.
39- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ -2004م.
40- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م.
41- الموضح في التجويد، عبد الوهاب القرطبي (ت461هـ)، تح. د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 1421هـ -2000م.
42- الموضّح في وجوه القراءات وعللها، لابن أبي مريم، تح. د. عمر حمدان الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، جدّة، ط1، 1993م.
43- النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833هـ)، تح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان.